



وكالة تنمية المنشآت
لصغيرة و الأصغر
Small & Micro Enterprise
Promotion Service

حضر موت: حين يصبح التراث طريقًا للعمل وبناء المستقبل



في مدن وادي حضرموت لا تزال البيوت الطينية شاهدةً على تاريخٍ طويل، لكن التراث لا يعيش في جدرانها وحدها. فهو حاضر أيضًا في خيطٍ يمر بين أصابع خياطة، وفي لحنٍ يتناقله أهل المنطقة، وفي صورةٍ تلتقط تفاصيل سوقٍ قديم، وفي قصةٍ يرويها جدٌ لحفيده. هنا تتحول المعرفة المتوارثة إلى مهارات قابلة للتعليم والتطوير، وتجد طريقها إلى جيل جديد يبحث عن فرص للعمل والتعبير عن هويته.



غير أن كثيرًا من هذه الممارسات يواجه تحديات متزايدة. فتغير أنماط الحياة، وتراجع الإقبال على بعض الحرف، وضعف قنوات التسويق والتوثيق، كلها عوامل تهدد استمرار معارف انتقلت داخل الأسر والمجتمعات عبر أجيال. ومن ثم لم تعد حماية التراث تعني حفظه في السجلات أو المتاحف فحسب، بل تهيئة الظروف التي تسمح له بالبقاء حيًا وقابلًا للممارسة والتفاعل مع احتياجات الحاضر.

في هذا السياق تنفذ منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة UNESCO بدعمٍ من الاتحاد الأوروبي وبالشراكة مع وكالة تنمية المنشآت الصغيرة والأصغر SMEPS، برنامج المنح الثقافية ضمن مشروع: توظيف الشباب من خلال التراث والثقافة في اليمن في عدد من المحافظات اليمنية، بالتعاون مع منظمات المجتمع المدني والمساحات الثقافية والإبداعية. وفي حضرموت اتخذت هذه الجهود أشكالًا متعددة، من تدريب الشباب على الحرف التقليدية إلى إنتاج المحتوى الثقافي وتوظيف التكنولوجيا في توثيق المعالم وتعريف الجمهور بها.

الخياطة والحياكة: من مهارة منزلية إلى منتج قابل للتطوير

كان هاشم الماخذي، ٢٣ عامًا، من سيئون، وهو من ذوي الإعاقة السمعية، يبحث منذ فترة طويلة عن فرصة يتعلم فيها حياكة الأزياء التراثية، وخصوصًا المعاوز. وكانت لديه نقطة بداية قريبة، لكنها غير متاحة فعليًا: مكائن حياكة في جمعية رعاية ذوي الإعاقة بسيئون، ظلت متوقفة في المستودع بعد تعطلها. تغير ذلك عندما التحق هاشم بمشروع (خيط ولون)، الذي نفذته مؤسسة حبة للفنون والتراث ضمن برنامج المنح الثقافية. أُعيدت صيانة المكائن واستخدامها في التدريب، ليبدأ هاشم تعلم أساسيات الحياكة التي كان يتطلع إلى إتقانها. «كنت أبحث منذ فترة طويلة عن فرصة أتدرب فيها على حياكة الأزياء التراثية، خصوصًا حياكة المعاوز» يقول هاشم، مضيفًا أن إعادة تشغيل المكائن أتاحت له أخيرًا فرصة التدريب عليها.





كان هاشم واحدًا من ٢٥ شابًا وشابة، بينهم ١٢ من ذوي الإعاقة السمعية، شاركوا في تدريب عملي على الخياطة والحيكة وإنتاج مشغولات مستوحاة من الهوية الحضرية. وعلى مدى ١٥ يومًا لكل مسار، تعلم المشاركون أساسيات الحرفة وتطوير المنتج، من اختيار الخامات وتحسين التشطيب والجودة إلى تقدير السعر والتعامل مع احتياجات السوق، قبل الانتقال إلى تطبيق عملي داخل مشاغل إنتاجية صغيرة لمدة خمسة أيام في الخياطة وعشرة أيام في الحياكة. بالنسبة إلى هاشم لم تتوقف التجربة بانتهاء التدريب. فبعد أن عبّر عن رغبته في مواصلة العمل، ساعده المشروع في توفير مكينتين لحياكة المعاوز من محافظة شبوة. «اليوم أعمل من البيت مع أخي في حياكة المعاوز، وأشعر أن ما تعلمته في التدريب أصبح مهارة أستطيع العمل بها فعليًا» يقول هاشم.

وفي المسار نفسه، وجدت بشائر باجبير، ٢٧ عامًا من سيئون، وهي من فئة الصم، فرصة لتطوير خبرتها في الخياطة، من التعرف إلى أنواع الأقمشة وتفصيلها إلى قص وخياطة الأزياء التراثية.

وبعد التدريب واصلت بشائر العمل وبدأ مشروعها الشخصي الصغير في النمو وإنتاج أعمال حسب الطلب. وتقول: «تطورت مهاراتي بعد الدورة في الخياطة، وبدأ مشروعي الشخصي الصغير يتطور ويكبر شيئًا فشيئًا». وأنتج المشاركون خلال التدريب نماذج أولية من الملابس والمشغولات المستوحاة من الموروث الحضري، لم تُطرح للبيع، إذ خُصصت لتطبيق المهارات واختبار جودة التنفيذ. لكن التجربة بالنسبة إلى هاشم وبشائر تجاوزت هذه النماذج؛ إذ انتقلت الحرفة معهما من التدريب إلى ممارسة فعلية يمكن البناء عليها.



التراث بعدسة الكاميرا

لم يبدأ صلاح الدين المخلافي، ٢٣ عامًا، من سيئون، من الصفر في التصوير. كان يعرف الكاميرا، لكنه كان بحاجة إلى تطوير قدرته على استخدامها بثقة أكبر وتحسين الجوانب التقنية في عمله. وجد هذه الفرصة في مسار التصوير الفوتوغرافي ضمن مشروع (التراث الحي: إبداع الشباب من أجل الهوية والدخل)، الذي تنفذه مؤسسة فن للثقافة والفنون. شارك صلاح الدين مع تسعة متدربين آخرين، وتدريبوا على الإضاءة والتكوين وزوايا التصوير ومعالجة الصور وبناء المشهد، مع توظيف الكاميرا في توثيق تفاصيل البيئة الثقافية والاجتماعية في وادي حضرموت.



ويصف صلاح الدين الفرق بقوله: «تحسنت مهاراتي التقنية في الإضاءة، والتكوين، ومعالجة الصور، وأصبحت أكثر ثقة في التعامل مع الكاميرا وإعداداتها». ومن أبواب البيوت القديمة والأسواق الشعبية إلى وجوه الحرفيين والممارسات الاجتماعية، تدرب المشاركون على النظر إلى التفاصيل اليومية بوصفها جزءًا من الذاكرة الثقافية، وتحويلها إلى أعمال فوتوغرافية قابلة للنشر والمشاركة. لكن الأثر الأوضح بالنسبة إلى صلاح الدين ظهر خارج قاعة التدريب. فقد بدأ في تصوير وتوثيق الأنشطة والفعاليات في جامعته، ليختبر ما تعلمه في بيئة حقيقية ويضيف الأعمال التي ينفذها إلى ملفه المهني. «هذا الدور زاد من ثقتي بنفسي، وجعلني أشعر بأن التدريب لم يذهب سدى» يقول صلاح الدين، الذي بات يمتلك إلى جانب المهارة أعمالاً واقعية يمكن البناء عليها في تطوير مساره المهني.

حين تتحول الحكاية إلى منتج إبداعي

أصبحت وفاء باني، ٢٨ عامًا، من سيئون، تنظر إلى الحكايات والذاكرة الشعبية من زاوية مختلفة بعد مشاركتها في تدريب الكتابة السردية. فما كان يُروى في البيوت والمجالس أصبح بالنسبة إليها مادةً يمكن إعادة صياغتها وتقديمها إلى جيل جديد. تقول وفاء: «ساعدني التدريب على فهم كيفية تحويل عناصر التراث والذاكرة الشعبية والتجارب الإنسانية إلى قصص وحكايات مكتوبة بطريقة مؤثرة». كانت وفاء واحدة من ٣٠ شابًا وشابة شاركوا في مشروع (التراث الحي: إبداع الشباب من أجل الهوية والدخل) الذي تنفذه مؤسسة فن للثقافة والفنون، موزعين بالتساوي على ثلاثة مسارات:

■ الرسم الرقمي

■ الكتابة السردية

■ التصوير الفوتوغرافي



في مسارها تدربت وفاء وزملاؤها على استلهام الأفكار من العمارة الطينية والعادات الاجتماعية والقصص المتداولة شفهيًا، وبناء الحبكة والشخصيات وتبسيط اللغة وكتابة نصوص للأطفال، ثم مراجعتها وتطويرها. وتقول وفاء إن التدريب طوّر قدرتها على «بناء الشخصيات والأحداث واستخدام التفاصيل المحلية في إنتاج نصوص تحمل قيمة أدبية وثقافية»، مضيفة: «أصبحت أنظر إلى التراث باعتباره مادة حية يمكن إعادة تقديمها للأجيال الجديدة من خلال القصة والكتابة». إحدى ثمار هذا التفاعل كانت قصة (ألحان الأجداد: حكاية الدّان)، وهي قصة مصورة للأطفال

شارك في إعدادها متدربون من المسارات الثلاثة، واستلهمت فن الدان بوصفه أحد عناصر التراث الموسيقي والغنائي في حضرموت. تدور القصة حول الطفل أحمد الذي يقضي إحدى أمسيات حضرموت إلى جانب جده، ويكتشف من خلال استماعه إلى الرجال وهم يؤدون الدان عالمًا من الألحان والذكريات المتوارثة، فيما يشرح له جده مكانة هذا الفن ودوره في جمع الناس ونقل الحكايات والمشاعر بين الأجيال.



وكان صالح زبير، ٢٥ عامًا، من مدينة شبام، واحدًا ممن نقلوا هذه الحكاية إلى صورتها البصرية. إذ شارك صالح في تدريب الرسم الرقمي وأسهم في رسم شخصيات القصة، مطورًا مهاراته في رسم الشخصيات وتوزيع الضوء والظلال واستخدام البرامج الرقمية. لكن ما اكتسبه لم يبق مرتبطًا بالقصة وحدها؛ إذ بدأ بعد التدريب في تنفيذ طلبات للرسم الرقمي وتحقيق دخل منها. يقول صالح: «كانت مشاركتي في رسم شخصيات قصة ألحان الأجداد فرصة لتطبيق ما تعلمته وتحويل المهارات التي اكتسبتها إلى عمل فعلي». ورغم أنه لم يحصل بعد على فرصة عمل في المجال، فإنه يؤكد: «بدأت في الحصول على دخل من طلبات الرسم الرقمي، وهذا شجعني على الاستمرار وتطوير مهاراتي». وهكذا لم تُنتج المسارات قصة عن الدان فقط؛ بل منحت المشاركين مساحةً لتوظيف الكتابة والتصوير والرسم في إعادة تقديم التراث، وفي حالة صالح، بدأت المهارة نفسها تفتح طريقًا إلى الدخل.



حين يصبح التراث تجربة تُروى



كان عبد الله بلهول، من مدينة تريم، يمتلك مهارةً يمكن أن تفتح له باباً مختلفاً للعمل مع التراث: اللغة التركية. فبعد دراسته للاقتصاد في جامعة سكاريا في تركيا، وملاحظته اهتمام الزوار الأتراك باليمن، بدأ يفكر في توظيف لغته في الإرشاد السياحي. «صار هناك كثير من الزوار الأتراك يأتون إلى بلادنا، فحببت أتعلم هذه المهنة حتى أقوم بخدمة هؤلاء السياح»، يقول عبد الله.

وجد فرصته من خلال أحد تدريبيين متخصصين في الإرشاد الثقافي والعمل المتحفي، نفذهما مركز التراث الحضري الثقافي ومؤسسة الرناد للتنمية الثقافية، واستفاد منهما ٢٢ متدرباً، بينهم ٩ نساء. خلال التدريب تعرّف عبد الله والمشاركون إلى أساليب تقديم المحتوى التراثي والتعامل مع الزوار والإرشاد وتقديم المعلومات بطريقة واضحة وجذابة. وبالنسبة إليه أضاف التدريب إلى معرفته باللغة فهماً لمتطلبات المهنة نفسها: «أدركت أن لكل مهنة أساليبها وقواعدها الخاصة». وسرعان ما انتقلت المعرفة إلى الميدان. فقد أتاحت لعبد الله بعد التدريب فرصة الإرشاد السياحي مع وفدين تركيين؛ أحدهما زار محافظة مأرب، والآخر مدينة شبام، كما رافق الزوار إلى عدد من الأماكن في تريم. ويقول: «أعجب الزوار الأتراك بشكل كبير بالتراث الموجود لدينا، وأشعر أنني قدمت لهم خدمة مناسبة». لكنه يضيف بواقعية أن المجال «يحتاج إلى ممارسة أكثر وأكثر». وهكذا وجد عبد الله في التدريب حلقة وصل بين مهارة كان يمتلكها أصلاً وهي اللغة، ومجال يستطيع تطبيقها فيه لتعريف الزوار بالتراث المحلي.

من المعلم التاريخي إلى تجربة رقمية



بالنسبة إلى خالد باغوث، ٤٧ عاماً، من تريم، وهو طالب دكتوراه بكلية التربية بجامعة سيئون، لم تكن قيمة دورة البحث العلمي والتوثيق التاريخي في المعرفة النظرية وحدها، بل في أن ما تعلمه وصل إلى معالم المدينة نفسها. يقول خالد: «لم تقتصر الدورة على الجانب النظري والتدريبي، بل ارتبطت بنتائج واقعية ملموسة يمكن أن يكون له أثر مستدام في خدمة المدينة وتراثها».

شارك خالد ضمن مشروع (توظيف الشباب من خلال تطوير منظومة لوحات تفاعلية للمعالم التاريخية لمدينة تريم) الذي نفذته مؤسسة الرناد للتنمية الثقافية. وضم التدريب ٢ مشاركًا، منهم ١٣ شابًا و٧ شابات، تعلموا البحث في المعلومات التاريخية وإعداد المادة التعريفية وتحويلها إلى محتوى يمكن ربطه بوسائل رقمية. وبالنسبة إلى خالد كان البحث والتوثيق التاريخي أكثر جوانب التجربة قيمة، لما أتاحه له من مشاركة فعلية في إعداد نماذج توثيقية لمعالم تريم، وهي تجربة يصفها بأنها «نوعية ومتميزة» من حيث موضوعها ومنهجيتها ومخرجاتها.

وانتقل هذا العمل إلى نتيجة يمكن للزائر استخدامها مباشرة؛ إذ أسهم المشاركون بعد التدريب في تطوير منظومة لوحات تفاعلية رقمية لخمسة معالم تاريخية، مرتبطة بمنصة (إرث حضرموت) عبر رمز الاستجابة السريعة QR Code وشملت المعالم قصر عشة التاريخي، وقصر الرناد، ومسجد المحضار ومئذنته الشهيرة، وحصن مطهر، والسوق القديم (المحط). وبمجرد استخدام الهاتف يستطيع الزائر الوصول إلى معلومات عن الموقع وسياقه التاريخي، فيما تسهم المنصة في إثراء المحتوى الرقمي عن تاريخ حضرموت وثقافتها ومعالمها. وهذا هو الأثر الذي يركز عليه خالد حين يقول إن التجربة يمكن أن «تسهم في تعريف السياح والزوار بالمعالم التاريخية والحضارية لمدينة تريم وفق أسس علمية ومنهجية».

مسارات مختلفة، أثر يتجاوز حفظ التراث



تكشف التجارب في حضرموت أثرًا يتجاوز التدريب وحفظ التراث إلى فرص العمل والدخل والمشاركة المجتمعية. فمن خلال تدخلات نفذتها أربع جهات محلية، شارك ٩٧ شابًا وشابة في الخياطة والحيكة، والتصوير والكتابة والرسم الرقمي، والإرشاد الثقافي والعمل المتحفي، والبحث والتوثيق واللوحات التفاعلية، بينهم ١٢ شخصًا من ذوي الإعاقة السمعية، إلى جانب مشاركة النساء في عدد من المسارات. اقتصاديًا تحولت بعض المهارات إلى فرص فعلية للعمل والدخل؛ فهاشم يعمل مع أخيه في حياكة المعاوز، وبشائر تطور مشروعها الصغير وتنتج حسب الطلب، وصالح يحقق دخلًا من الرسم الرقمي، فيما بنى صلاح الدين خبرة وملفًا مهنيًا من أعمال التصوير، واختبر عبد الله مهاراته في الإرشاد السياحي ميدانيًا. واجتماعيًا وسّعت هذه المسارات فرص مشاركة الشباب والنساء والأشخاص ذوي الإعاقة في أنشطة ثقافية وإبداعية مرتبطة بمجتمعاتهم. وبالتوازي بقي التراث في قلب هذه التجارب؛ من إحياء الأزياء والمشغولات الحضرية وتوثيق تفاصيل المكان، إلى إعادة تقديم فن الدان للأطفال، وتعريف الزوار بالمعالم، ورقمنة تاريخ خمسة مواقع في تريم. وتأتي هذه التدخلات ضمن برنامج المنح الثقافية في مشروع: توظيف الشباب من خلال التراث والثقافة في اليمن، بالشراكة بين SMEPS واليونسكو وبدعم من الاتحاد الأوروبي. وفي حضرموت تُظهر التجربة كيف يمكن لصون التراث أن يتقاطع مع العمل والدخل والإدماج الاجتماعي، ليظل التراث حيًا في مهارات الناس ومنتجاتهم وفرصهم، لا في الذاكرة وحدها.





www.smeps.org.ye